

فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ، وَالْمُسْلِمُونَ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارِ، عِنْدَ خَيْرِ جَارِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٍ إِلا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، وَقَالَ لِكُلِّ بِطَرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ أَوَى إِلَى بَلْدِ الْمَلِكِ مِنْهَا غَلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَّقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْتَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافٌ قَوْمِهِمْ لِيُرِدُّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَلَّمَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشَيْرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمُهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمُهُمْ، فَإِنْ قَوْمِهِمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ. ثُمَّ إِنَّهُمَا قَدَّمَا هَدَايَاهُمَا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبَّلُهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ أَوَى إِلَى بَلْدِكَ مِنْهَا غَلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَّقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ وَجَاؤُوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْتَا إِلَيْكَ أَشْرَافٌ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتُرَدِّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ. وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرُو بْنِ العاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَهُمُ النَّجَاشِيِّ. فَقَالَتْ بَطَارِقَتِهِ حَوْلَهُ: صَدَقاً أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا، فَلَيُرِدُّهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ. فَفَضِّبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، لَا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلَا يُكَادُ قَوْمٌ جَاوِرُونِي وَتَرَلُوا بِلَادِي، وَاحْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ، حَتَّى أَدْعُوهُمْ، فَأَسْأَلُهُمْ عَمَّا يَقُولُ هَذَا فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولُانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَرَدَّتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا غَيْرَ ذَلِكَ مَنْعَتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوارَهُمْ مَا جَاوِرُونِي.

ثُمَّ أَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِرَجُلٍ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا وَمَا أَمْرَنَا بِهِ تَبَيَّنَ لَنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. فَلَمَّا جَاءُوهُمْ، لَمْ يَسْجُدُوا لِلنَّجَاشِيِّ كَمَا يَفْعَلُ الْآخَرُونَ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ بِأَنَّ تَحِيَّتَهُمْ هِيَ السَّلَامُ.

دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ فَارَّقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَلِلِ؟ فَكَلَّمَهُ جَعْفُرُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِوانَ اللَّهُ عَلَيْهِ - كَلَامًا طَيِّبًا عَنِ الإِسْلَامِ، وَقَالَ فِيمَا قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ وَشَرْكٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتَيُ الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسْيِءُ الْجِوارَ، وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارَمَ وَلَا نَعْرِفُ حَلَالًا وَلَا حَرَامًا، وَيَأْكُلُ الْقَوْيُّ مِنْهَا الْمُضَعِيفَ. فَكَنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنْنَا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ أَحَدًا، وَنَخْلُعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ. وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوارِ، وَالْكَفُّ عَنْ

المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا بالصلوة والزكاة والصيام - (وعدد عليه أمرور الإسلام) - فصدقناه وأمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم شرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأخلنا ما أحل لنا، فعدنا علينا قومنا، وفتونا عن ديننا ليروعونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلل ما كنا نستحلل من الخبائث. فلما قهروننا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك وأخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك. فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه على، فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كَهِيَعَص﴾. مريم: 1. فبكى النجاشي حتى أخذل (ابتلت) لحيته، وبكت أساقوفه حتى أخذلوا مصالحهم، حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال لهم النجاشي: إن هذا الذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا، فلا والله لا أسلمهم إليكم.

فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لا تبيه غداً عنهم بما استحصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجالين: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لا أخبرنـه أنـهم يزعمونـ أنـ عيسى ابن مريم عبد. ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنـهم يقولـونـ في عيسى ابن مريم قولـاً عظـيمـاً، فأرسـلـ إليـهمـ، فـسلـهمـ عـمـاـ يـقولـونـ فيـهـ. فأرسـلـ إليـهمـ لـيسـأـلـهـ عنـهـ. فاجـتمـعـ القـومـ، ثم قال بعضـهمـ لـبعـضـ: ماذا تـقولـونـ فيـ عـيسـىـ بـنـ مـريـمـ إـذـاـ سـأـلـكـمـ عـنـهـ؟ قالـواـ: نـقـولـ وـالـلـهـ ماـ قـالـ اللـهـ، وـماـ جـاءـناـ بـهـ بـيـنـاـ، كـائـنـاـ فـيـ ذـلـكـ ماـ هـوـ كـائـنـ. فـلـمـ دـخـلـواـ عـلـيـهـ، قالـ لـهـمـ: ماذا تـقولـونـ فيـ عـيسـىـ بـنـ مـريـمـ؟ فقالـ جـعـفـرـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ: نـقـولـ فـيـهـ الـذـيـ جـاءـناـ بـهـ بـيـنـاـ ﷺـ فإـنـهـ يـقـولـ: هـوـ عـبـدـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ وـرـوـحـهـ وـكـلـمـتـهـ أـلـقاـهـ إـلـىـ مـريـمـ العـدـرـاءـ الـبـتوـلـ. فـضـرـبـ النـجـاشـيـ بـيـدـهـ إـلـىـ الـأـرـضـ، فـأـخـذـ مـنـهـ عـودـاـ، ثم قالـ: والله ما عـدـاـ عـيسـىـ بـنـ مـريـمـ ما قـلـتـ هـذاـ العـودـ. فـتـاخـرـتـ بـطـارـقـتـهـ حـوـلـهـ حـيـنـ قـالـ ماـ قـالـ، فقالـ: وـإـنـ تـحـرـتـ وـالـلـهـ، ثمـ قـالـ لـلـمـسـلـمـينـ: اذـهـبـواـ فـأـنـتـمـ آـمـنـونـ بـأـرـضـيـ، مـنـ سـبـكـمـ غـرـمـ، مـنـ سـبـكـمـ غـرـمـ، مـاـ أـحـبـ أـنـ لـيـ جـبـلـاـ مـنـ ذـهـبـ، وـإـنـيـ آـذـيـتـ رـجـلـاـ مـنـكـمـ. ثمـ قـالـ لـحـاشـيـتـهـ: رـدـواـ عـلـيـهـمـ هـدـاـيـاهـمـ، فـلـاـ حـاجـةـ لـيـ بـهـ، فـوـالـلـهـ ماـ أـخـذـ اللـهـ مـنـ الرـشـوـةـ حـيـنـ رـدـ عـلـيـ مـلـكـيـ، فـأـخـذـ الرـشـوـةـ فـيـهـ، وـمـاـ أـطـاعـ النـاسـ فـيـ قـاطـعـهـمـ فـيـهـ. فـخـرـجـاـ مـنـ عـنـدـهـ مـقـبـوحـينـ مـرـدـوـدـاـ عـلـيـهـمـ ماـ جـاءـ بـهـ.

(سـيـرـةـ اـبـنـ هـشـامـ: بـتـصـرـفـ)

الوَحْدَةُ

الخَامِسَةُ

المَدَارِسُ وَالْمَعَاهِدُ الْعِلْمِيَّةُ

القراءة المكثفة

الاسم المنقوص

القواعد (أ)

إِلَى الْمَعْلُومِ

فهم المسموع (القسم الأول)

الدُّعْوَةُ إِلَى القراءة

فهم المسموع (القسم الثاني)

الاسم المقصور

القواعد (ب)

قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ

القراءة الموسعة

المدارس والمعاهد العلمية

لَمْ يُكُنَّ مَسجِدٌ فِي الْمَاضِي مَكَانًا صَلَاةً فَحَسِبْ؛ بَلْ كَانَ مَدْرَسَةً يَتَعَلَّمُ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ القراءة والكتابه والقرآن، وعلوم الشرعية واللغة، والعلوم المختلفة. ثُمَّ أُقِيمَ الْكُتُبُ بِجَانِبِ الْمَسْجِدِ، وَخُصُّصَ لِتَعْلِيمِ القراءة والكتابه والقرآن، وشَيْءٍ مِنْ عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ.

كَانَ الْكُتُبُ يُشَبِّهُ الْمَدْرَسَةَ الْاِبْتِدَائِيَّةَ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ، وَكَانَ مِنَ الْكَثُرَةِ بِحِيَثُ كَانَ هُنَاكَ نَحْوُ ثَلَاثِيَّةِ كُتُبٍ فِي الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ. وَكَانَ الْكُتُبُ الْوَاحِدُ يَضُمُّ - أَحْيَاً - مِئَاتٍ أَوْ أَلْفَاتٍ مِنَ الطَّلَابِ.

ثُمَّ قَامَتِ الْمَدْرَسَةُ بِجَانِبِ الْكُتُبِ وَالْمَسْجِدِ، وَكَانَتِ الدِّرَاسَةُ فِيهَا تُشَبِّهُ الدِّرَاسَةَ الثَّانِيَّةَ وَالْعَالِيَّةَ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ، وَكَانَ التَّعْلِيمُ فِيهَا مَجْانًا. وَلَمْ يَكُنَّ التَّعْلِيمُ فِيهَا خَاصًا بِطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ، بَلْ كَانَ يَجْلِسُ فِي الْمَدَارِسِ ابْنُ الْفَقِيرِ بِجَانِبِ ابْنِ الْغَنِيِّ، وَابْنُ التَّاجِرِ بِجَانِبِ ابْنِ الصَّانِعِ وَالْمُزَارِعِ. وَكَانَتِ الدِّرَاسَةُ فِيهَا قِسْمَيْنِ: قِسْمًا دَاخِلِيًّا لِلْفَرَّبِيِّ أَوِ الْدِينِ لَا تُسَاعِدُهُمْ أَحْوَالُهُمُ الْمَادِيَّةُ، عَلَى أَنْ يَعِيشُوا عَلَى نَقَاتِ آبَائِهِمْ، وَقِسْمًا خَارِجِيًّا مِنْ يُرِيدُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْمَسَاءِ إِلَى بَيْتِ أَهْلِهِ. وَكَانَ الطَّعَامُ يُقَدَّمُ مَجَانًا لِلْطَّالِبِ فِي الْقِسْمِ الدَّاخِلِيِّ، وَفِيهِ يَعْبُدُ اللَّهُ، وَيُطَالِعُ، وَيَنَامُ؛ وَبِذَلِكَ كَانَتْ كُلُّ مَدْرَسَةٍ تَحْتَوِي عَلَى مَسْجِدٍ، وَقَاعَاتٍ لِلْدِرَاسَةِ، وَغَرَفٍ لِنَوْمِ الْطَّالِبِ، وَمَكْتَبَةٍ، وَمَطَابِخٍ وَحَمَامٍ. وَكَانَتْ بَعْضُ الْمَدَارِسِ تَحْتَوِي - فَوْقَ ذَلِكَ - عَلَى مَلَاعِبٍ لِلرِّياضَةِ الْبَدَنِيَّةِ فِي الْهَوَاءِ الْطَّلْقِيِّ.

وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ الْجَامِعُ الْأَزْهَرُ، فَهُوَ مَسْجِدٌ تُقامُ فِيهِ حَلَقاتُ الْدِرَاسَةِ، تُحِيطُ بِهِ مِنْ جِهَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ غُرْفٌ لِسِكَنِ الْطَّالِبِ تُسَمَّى بِالْأَرْوَفَةِ؛ يَسْكُنُهَا طَالُبُ كُلِّ بَلْدٍ بِجَانِبِ وَاحِدٍ، فَهُنَاكَ رُوَاقُ الشَّامِيِّينَ، وَرُوَاقُ الْمَغَارِبِيِّينَ، وَرُوَاقُ الْأَتَرَالِكِ، وَرُوَاقُ الْسُّنْدُوْدَانِيِّينَ، وَهَكُذا. وَلَا يَزَالُ طَالُبُ الْأَزْهَرِ حَتَّى الْيَوْمِ، يَأْخُذُونَ رَوَاتِبَ شَهْرِيَّةً مَعَ دِرَاسَتِهِمُ الْمَجَانِيَّةِ مِنْ رِبْحِ الْأَوْقَافِ، الَّتِي أُوقِفتَ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ الْأَزْهَرِ.

كَانَ رُؤُسَاءُ الْمَدَارِسِ مِنْ خِيَرَةِ الْعُلَمَاءِ وَأَكْثَرِهِمْ شُهْرَةً. وَلَمْ يُكُنْ الْمُدَرِّسُونَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ يَأْخُذُونَ أَجْرًا عَلَى عَمَلِهِمْ. وَبَعْدَ أَنْ اتَّسَعَتِ الْحَضَارَةُ، وَبُنِيَتِ الْمَدَارِسُ، وَأُوْقِفَتِ لَهَا الْأَوْقَافُ، جُعِلَ لِلْمَدَرِّسِينَ فِيهَا رَوَاتِبٌ شَهْرِيَّةً. تَخْتَلِفُ كَثْرَةً وَقِلَّةً بِحَسْبِ الْبِلَادِ وَالْمَدَارِسِ وَالْأَوْقَافِ، وَلِكُلِّهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ كَانَتْ كَافِيَّةً، لِيَعِيشَ الْمَدَرِّسُ حَيَاةً طَيِّبَةً. وَلَمْ يُكُنْ يَجْلِسُ لِلتَّدْرِيسِ إِلَّا مَنْ شَهَدَ لَهُ الشِّيُوخُ بِالْكَفَاءَةِ. وَقَدْ كَانَ النَّظَامُ فِي عَصْرِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِ، أَنْ يَسْمَحَ الشَّيْخُ لِلْتَّلَمِيْدِ بِالْأَنْفِصالِ عَنْ حَلْقَتِهِ، وَإِنشَاءِ حَلْقَةٍ خَاصَّةٍ، أَوْ أَنْ يَعْهَدَ بِرِئَاسَةِ الْحَلْقَةِ إِلَيْهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وَكَانَتِ الْمَدَارِسُ أَنْوَاعًا؛ فَمِنْهَا مَدَارِسُ لِتَدْرِيسِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَقْسِيرِهِ وَحِفْظِهِ وَقِرَاءَتِهِ، وَمِنْهَا مَدَارِسُ لِلْحَدِيثِ خَاصَّةً، وَمِنْهَا أَكْثَرُهَا - وَهِيَ أَكْثَرُهَا - مَدَارِسُ لِلْفِقْهِ، فَقَدْ كَانَ لِكُلِّ مَدْهِبٍ فِقْهِيًّا مَدَارِسٌ خَاصَّةٌ بِهِ، وَمِنْهَا مَدَارِسُ لِلْطَّلبِ، وَمِنْهَا مَدَارِسُ لِلْأَيَّاتِمِ. وَيَذَكُرُ النَّعِيْمِيُّ فِي كِتَابِهِ (الْمَدَارِسُ فِي تَارِيخِ الْمَدَارِسِ) - وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْهِجْرِيِّ - أَسْمَاءً مَدَارِسِ دِمْشَقَ، وَفِيهَا وَحْدَهَا سَبْعُ مَدَارِسٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلِلْحَدِيثِ سِتَّ عَشَرَةً مَدَرَسَةً، وَلِلْقُرْآنِ الْهِجْرِيِّ - مَدَارِسٌ لِلْأَيَّاتِمِ، وَفِيهَا وَحْدَهَا سَبْعُ مَدَارِسٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلِلْحَدِيثِ سِتَّ عَشَرَةً مَدَرَسَةً، وَلِلْقُرْآنِ الْهِجْرِيِّ - مَدَارِسٌ لِلْأَيَّاتِمِ، وَلِلْفِقْهِ الشَّافِعِيِّ ثَلَاثُ سِتَّونَ مَدَرَسَةً، وَلِلْفِقْهِ الحَنْفِيِّ اثْتَانِ وَحَمْسَوْنَ مَدَرَسَةً، وَلِلْفِقْهِ الْمَالِكِيِّ أَرْبَعُ مَدَارِسَ، وَلِلْفِقْهِ الْحَنْبَلِيِّ إِحدَى عَشَرَةَ مَدَرَسَةً، هَذَا غَيْرُ مَدَارِسِ الْطَّبِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِلُومِ.

(بَتَصَرُّفِ مِنْ كِتَابٍ: مِنْ روَائِعِ حَضَارَتِنَا - مَصْطَفِي السَّبَاعِي)